۞ الشيخ أحمد العلاوي عارفا ومتصوفا

د. حميدي خميسي
نائب رئيس جامعة للدراسات العليا
–جامعة الجزائر–

حينما زودتني جمعية الشيخ العلاوي بمجموعة من مؤلفات الشيخ ورسائله، وأخذت أتصفحها وأقيد بعض ملاحظاتي عليها، انتابني شعور من الذهول أمام هذه المادة الغزيرة، وهذا الغوص في باطن الأشياء، واستكناه طريق القوم – بدأ من المعرفة بوجود الإنسان نفسه إلى المجاهدة وتصفية النفس من أدران العلائق، إلى الذكر بالاسم المفرد، فالوصول إلى نهاية المعرفة والاستغراق الكلي والفناء في المذكور، كل ذلك بأسلوب فياض سلس يذكرني بأسلوب اللّمع، وقوت القلوب والرسالة، والفتوحات، والمواقف، واستغرقني الإعجاب بما عليه هذا الشيخ العصامي من معرفة غزيرة، وإلمام بعلم القوم، وموهبة لدنية لا تتأتى إلا بمجاهدة النفس وإخلاص في المحبة، تتوج بهذا الفتح الرباني الذي كلت دونه الأبصار ووجمت القلوب وتفاقم إعجابي بمناقب هذا الشيخ، وشخصيته الفذة المتجسدة في معاملته لأصدقائه ومناوئيه، ودفاعه الرصين عن حياض التصوف بالكلمة الطيبة والحجة الدامغة لا يعوزه دليل من الكتاب أو السنة. ولا من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهممت بتتبع بعض الملامح المحددة من شخصية الشيخ معتمدا على المقارنة بين ذكريات الدكتور[1] (كاري) ومذكرات الشيخ نفسه وسرده لجوانب من حياته، وكانت المقارنة

مغرية، إذ تعكس صورة الطبيب المستشرق عن الشيخ رؤية مخالفة لما عهده الرجل المسلم، ولا أدل على اختلاف تلك الرؤية من جنوح المستشرق إلى مقارنة الشيخ بالمسيح في كل مرة يتكلم فيها عن زهده وبركاته، وبالرهبان المسيحيين، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يقارن بعض تقاليد الشيخ المؤسسة على الكتاب والسنة، بالإنجيل، ويرى في بعض آراء الشيخ – إن لم تخنه الذاكرة – ما يشبه الاعتقاد بسقوط التكليف، وهذا ما تنفيه جميع مؤلفات الشيخ، وسنتطرق إلى ذلك في حين كلامنا على موقف الشيخ من التصوف وضرورة ربطه بين الحقيقة والشريعة .

وكانت أول صورة مرت بخاطري وأنا أقرأ مؤلفات الشيخ هي تلك الصورة التي نقلها بعض الرواة عن الحلاج بعدما صلب وقد قطعت يداه ورجلاه وتقدم منه أحد مريديه يسأله: ما التصوف أيها الشيخ؟ فرد الحلاج تحت حشرجة الموت "أهونه ما ترى يا بني" إنها كلمة تقشعرلها الأبدان والقلوب، لأن التصوف في أساسه قطع العلائق وتضحية بكل ما يملك الإنسان من عزيز ونفيس إلى ما هو أعز وأنفس، إنه طريق شاق بدايته ترويض ومجاهدة واستقامة وإخلاص ونهايته معرفة وفناء عما سوى الله من الممكنات.

ومرت بخاطري أيضا جحافل من أئمة التصوف الذين اضطهدوا وابتلوا في أموالهم، وأنفسهم، وذويهم، واتهموا بالزندقة، والإلحاد وهم المقربون العارفون بحق الله وعباده المجاهرون بالدعوة إلى مجاهدة النفس إن ركن غيرهم إلى الملذات ومحبة الدنيا والرياسة التي هي أصل كل بلاء في مجتمعاتنا، وابتلي الشيخ في حياته بما ابتلي به المتصوفة الصالحون، وتصدى لذلك مدافعا عن التصوف وأهله والإسلام

والمسلمين، ولا نبالغ إذا قلنا إن حياته كلها كانت جهادا ضد النفس ودفاعا عن حقيقة التصوف والرد على مناوئيه، ومؤلفاته كلها خير دليل على تلك الهمة العالية والثبات على الموقف لا يخشى في الحق لومة لائم.

وقد رأيت منهجيا أن أقسم مداخلتي هذه إلى الأقسام التالية:

1 – نسب الطريقة .

2 – في معنى التصوف وغايته.

3 – علاقة الشيخ بالمريد.

4 – الشريعة والطريقة والحقيقة.

5 – الذكر والفناء ونهاية المعرفة.

أولا: نسب الطريقة ومعنى التصوف وغايته:

مما يدل على أن التصوف ليس دخيلا على الإسلام، وأنه نشأ كما يرى الكثير من الباحثين، عن طريق تدبر آيات القرآن الكريم ومعانيه، والالتزام بالذكر الوارد في الكتاب والسنة، هو انتساب جميع الطرق في تسلسلها صعودا إلى شيخ من شيوخ الطريقة حتى الوصول إلى النبي ﷺ إلى جبريل إلى رب العالمين، وفي هذا الانتساب تأكيد على عودة الفرع إلى أصله والجزء إلى كله في سفر شاق زاده التقوى والإخلاص وثمرته معرفة الله والغيبة عما سواه.

ومن ثم فإن نسب هذه الطريقة يمتد ليصل إلى الحسن بن علي بن أبي طالب إلى سيد المرسلين[2]، ومن أكابر المشايخ الذين تنتسب إليهم الطريقة الشيخ محمد البوزيدي وهو الذي لقبه الشيخ العلاوي "مبدأ الطريق ومنتهاه" ومن كبار أقطاب

الطريقة من الشيوخ الأوائل، الشيخ أبو يعزى والشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي والشيخ علي الجمل، وعبد الرحمن المجذوب، وأحمد زروق، وعلى بن وفاء، والشيخ أبو العباس المرسي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، وعبد السلام من مشيش، وغيرهم، ومن الملاحظ أن الأقطاب الذين تنتسب إليهم هذه الطريقة هم من المغاربة ومن أصول أندلسية كماأنهم من أكابر العلماء والفقهاء[3].

ولعل ما يميز هذه الطرق الأندلسية والمغربية هو الزهد في الكرامات إذ تعد هذه الأخيرة عائقا في الوصول إلى التحقيق.

كما أن المظهر الخارجي للمتصوف من لباس وهيأة لا يعتد به إذا كان المتصوف مخلصا في طريقه إلى الله، من ذلك ما يحكى عن أبى الحسن الشاذلي حينما انتقده أحد المشايخ لأنه كان حسن المظهر والمخبر فقال له أبو الحسن: اعرف الله وكن كيف شئت وقال في موطن آخر"ليس التصوف بأكل النخالة والشعير وإنما هو في معرفة الله والإخلاص في محبته" كما تتميز هذه الطريقة بتمسكها بالكتاب والسنة وبالجمع بين الحقيقة والشريعة في جميع الأحوال، ولكن الهداية الربانية قد تصل بالإنسان مباشرة إلى المنابع فلا يجعل عليه منة لأستاذ أو شيخ، ويكون أخذه مباشرة عن رسول الله يقول أبو العباس المرسي وهو تلميذ أبي الحسن الشاذلي "طريقتنا هذه لا تنتسب للمشارقة ولا للمغاربة بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي .. وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ، وقد يجمع شمله برسول الله فيكون آخذا عنه وكفى بهذا منة ... وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد يغنيه عن الأستاذ".

ثانيا : في معنى التصوف وغايته[4]:

لعله ليس من السهل علينا الخروج كما يقول الفقهاء بتعريف جامع مانع يشمل حقيقة التصوف، وكل التعاريف الواردة عن المتصوفة الكبار هي عبارة عن وصف حالة شعورية من حالات النفس أو التحقق بمقام من المقامات والتمكن فيه حتى يصير ذلك المقام معبرا عندهم على حقيقة التصوف كقول أبى مدين مثلا وهو يعني التصوف "... حقيقة الفقر ألا تشاهد سواه" وهي حالة من الفناء، والاستغراق، تفنى فيها حظوظ النفس والممكنات ولا يبقى إلا الذي ليس كمثله شيء.

ومن أهم التعاريف التي قرأتها للتصوف هي قول أبي يزيد حينما سئل عن حقيقة التصوف فقال: هو الجلوس مع الله بلا علاقة أو قول الشبلي: الجلوس مع الله بلاهم، أو قول متصوف آخر: التصوف هو الدخول في كل سلوك سني والخروج من كل وصف دني إلا أن جميع تلك التعاريف تتفق على أن التصوف هو طريق قبل أن يكون تحقيقا، وسلوك ومقامات قبل أن يكون أحوالا ويقوم أساسا على محاسبة النفس وتتبع خواطرها عن طريق الذكر، والاتصاف بدوام المراقبة لله سبحانه وتعالى.

ويرى الشيخ العلاوي أن التصوف هو تطهير القلب والنفس، وهو زبدة الدين والغاية القصوى من سنن الموحدين وكفى التصوف فضلا أنه عبارة عن السير في مقامات الإحسان أما المتصوفة عنده فهو لا يذكرهم إلا على أنهم أهل الله "... بذلوا

جهدهم في طاعته، وأسسوا مجدهم على تقوى من الله، حتى عرفوا بين الخصوص والعموم بأنهم أهل الله وخاصته من خلقه".

كما يأخذ التصوف عند القوم معنى التجريد، ومعناه إخلاص المحبة لله وإطراح الدنيا والتحقق بأوصاف العبودية، حتى لا تبقى مع المتصوف بقية .. وكان التجريد مقررا بصفة رئيسية في الطريقة الدرقاوية والشاذلية التي يعتبر أئمتها من أقطاب الطريقة العلاوية، يقول الشيخ الدرقاوي في معنى التجريد: "إنه عبارة عن التحقق بأوصاف العبودية والقيام بوظائف الربوبية، والعبودية كلها فقر وفاقة، وذل واضطرار، غير أن كمال الربوبية بقدر ذلك فكلما تحققت بوصفك أمدك الحق بأوصافه وعلى قدر التخلي يكون التجلي".

ومن هنا نستنتج أن التصوف والتجريد أو الفقر مدرسة سلوكية أساسها تربية النفس، والتحلي بالأخلاق الكريمة والحضور مع الله، والشدة على النفس بالمحاسبة والمراقبة الدقيقة لخواطر النفس الأمارة التي يقول عنها المتصوفة أنها، أي تلك الخواطر، "أخفى من دبيب النمل على الحجر الأملس في الليلة الظلماء".

أما مكانة هذا العلم عند الشيخ العلاوي فهي لا تضاهيها مكانة فهو أشرف العلوم جميعا لتعلقه بشرف المعلوم الذي هو الله ومن ثم ترى الناس يختلفون في سائر العلوم سوى هذا العلم يقول الشيخ: ".. إن علم التصوف هو أفضل العلوم وأزكى الفهوم، وشرفه بشرف المعلوم، وقدره بقدر متعلقه وهو متعلق بذات القيوم، وهذا العلم مأخوذ عن عيان، والعلوم الأخرى مأخوذة من دليل وبرهان .. لأنه شتان بين من يستدل به وبين من يستدل عليه".

ويرى بعض الأكابر كأبي الحسن الشاذلي أنه لا غنى للمسلم الحق عن التمسك بأهدابه، والسير على منوال أهله من الصديقين والعارفين يقول أبو الحسن: من لم يتغلغل في علمنا هذا بات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر .." ولكن ينبغي ألا نفهم من الكبائر ما يؤديه مفهومها شرعا، والمقصود بها عند القوم " شهود الغير"، ويقول الجنيد في الحض على التصوف، أو على الأقل التصديق به "التصديق بعلمنا هذا ولاية"

ويجب التذكير بأن هؤلاء القوم قد وصلوا إلى درجة من الحضور والمراقبة لله حتى أصبحوا يعدون مجرد الغفلة عن الله في الذكر خيانة، ولذلك نراهم يقولون: إن توبة العامة من الذنب وتوبة الخاصة من الغفلة".

وعموما فإن التصوف عند الشيخ مستمد من القرآن وسنة الرسول وأخلاق سلف الأمة الصالح، وهو يستعين على شرح مذهبه وبيان طريقته والدفاع عن التصوف والمتصوفة مما ورد في أقوال كبار الأئمة وهومما يجب تحصيله على كل مكلف، وأنه في نظره عبارة عن "... تدرج المكلف بمقامات الإحسان والترقي في معارج خصاله، ولا شيء هناك زائد في الدين عن مقام الإسلام والإيمان والإحسان....."

وعلى هذا يمكن القول إن التصوف في نظر الشيخ قسمان، قسم سلوكي أخلاقي تهذيبي وهو ما يكون لإرادة المريد فيه نصيب وهذا النوع نجده مبثوثا في المؤلفات التي تتكلم عن المقامات، والمجاهدات، والعبادات، وقسم آخر مرجع

أربابه فيه إلى المكاشفات والأذواق، وما يقع لهم من التجليات، ووصف لحالات من الشهود، قد تقصر اللغة في كثير من الأحيان دون التعبير عنها.

ثالثا: الشيخ والمريد:

خصص الشيخ إشارات عديدة في كتابيه "أعذب المناهل" و"المنح القدوسية" إلى تحديد طبيعة العلاقة التي يجب أن تربط بين المريد والشيخ، وذلك أن الطريق محفوف بالمخاطر والمزالق، وقد يذهب المريد إلى غير رجعة، فيختل أو يعود إلى ما كان عليه، وكأنه لم يفعل شيئا، فدور الشيخ يكمن في الأخذ بيده لاستكناه عوالم التصوف، مقامات وأحوالا، ويتعهده بالرعاية، وقد تكلم هو نفسه عن طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بشيخه "البوزيدي"، وقد عمل هذا الأخير على حض الشيخ العلاوي للتمسك في بداية طريقه، بمجاهدة النفس، لأنها أعدى عدو للإنسان يحمله بين جنبيه، وينطلق الشيخ من الفكرة السائدة في التصوف حول ضرورة الشيخ للمريد، وهي قولهم "من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه".

ومن أهم شروط نجاح تلك العلاقة بين الشيخ والمريد هي ألا تكون للمريد مع الشيخ إرادة، ويكون معه كالميت بين يدي غساله كما يقولون، وفي ذلك تربية وتحضير لسلب الإرادة مع الله التي هي مقام عال ينبغي الوصول إليه، يقول الشيخ: ثم أعلم أن المريد إذا حصلت له إرادة مع شيخه فهو مردود من حينه، وإذا حصلت له بعد انتهائه فيكون عاصيا لربه، هذا مع شيخه، وأما إذا حصلت له إرادة مع الحق عزوجل بحيث أراد أن يريد مع المريد الحقيقي فيكون كالمرتد في طريقه" وعن ضرورة

صحبة الشيخ يقول: "لابد للمريد أن يصحب شيخا فصحبة الشيخ في الوصول إلى الله شرط يلزم من عدمه العدم..".

ولكن الذي نلاحظه على الشيخ العلاوي، هو أن اختيار الشيخ عنده لابد أن يخضع لشروط، بمعنى أن المريد لابد أن يتحرى ويدقق. فما أكثر المشايخ المدعين الذين لم تنفحهم رياح المعرفة، يقول الشيخ العلاوي: "إلا أن شرط الشيخ أن يكون عارفا بالمسالك أي بالطريق الموصلة لله عز وجل لا مجرد الاسم، ومن ثم فإن الشيخ في نظر الأستاذ العلاوي هو من يرفع الحجاب عن المريد وتكون له معرفة بأمراض المريدين.

قال الشيخ أبو مدين: "الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم، الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه ..".

ويسترسل الشيخ في الكلام عن أدب الشيخ مع المريد، فهو بالنسبة إليه كالطبيب الذي يداوي علله وعلى المريد أن يستفرغ كل أنواع الآداب مع شيخه بهمة عالية، ونشاط لا يعرف الكلل أو الملل، يقول الشيخ: "ومن المذمومات وجود التراخي في طلب الله (جد صدقا تجد مرشدا) ومن طلب الله لم يطلب محالا، فلو اضطر المريد اضطرار الظمآن إلى الماء لوجد الحق أقرب إليه من نفسه".

رابعا: الشريعة والطريقة والحقيقة:

لعله من الأنسب أن نتكلم على الشريعة والطريقة والحقيقة، بدل ردها إلى ثنائية الشريعة والحقيقة، كما يرى ذلك بعض المتصوفة والفلاسفة، وذلك تماشيا مع مذهب الشيخ في رؤيته لمبادئ الإسلام التي تقوم على ثلاثة: إسلام، إيمان، إحسان والإحسان هو التصوف سلوكا وتحقيقا، وذلك انطلاقا من الحديث النبوي الشريف، حينما سئل الرسول عن الإحسان فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك"، وقبل أن نتطرق إلى موقف الشيخ وسائر الأئمة من ضرورة الجمع بين الشريعة والحقيقة، نحدد مفاهيم هذه المصطلحات باختصار، فالشريعة كما هو معروف: هي خطاب الله الموجه إلى الناس عن طريق الرسل بواسطة الوحي وهي في مجملها تتضمن الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات.

أما الطريقة فهي: سلوك طريق القوم وما يفرضه ذلك من مجاهدة وتطهير للنفس، ومحاسبة، ومراقبة، وأذكار وترق عبر المقامات إلى الوصول إلى معرفة الله.

أما الحقيقة، فهي كما يرى ذلك كبار المتصوفة هي الوصول إلى الاعتقاد بأن نسبة الأفعال كلها حسيها ومعنويها إلى الله ، في أي صورة من صور الخلق، وهذا ما يسمى بتوحيد الأفعال، ويلخص في مقولة عامة هي: أنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله، وهذا ما يجمع عليه تقريبا كل المتصوفة مهمااختلفت اعتقاداتهم، وطرقهم، يقول النابلسي " إن توحيد الأفعال هذا، هو باب الحقيقة، وباب الدخول إلى الحضرة الإلهية، وبعده توحيد الصفات، وبعده توحيد الأسماء، وبعده توحيد الذات، وكله يحتاج إلى المراقبة حتى يصير ذوقا وكشفا".

وإذا كان الله هو خالق أفعال العباد، ولا فاعل في الحقيقة إلاّ هو، فإن أفعالهم متعلقة بهم على جهة الاكتساب، ومن ثم كان الأمر والنهي، ومعلوم أن علماء الأمة اتفقوا على أن للشريعة أو للقرآن ظاهرا وباطنا، فأما الظاهر، فهو أحاكم العبادات وأما الباطن، فهو علم القلوب، وقد يعتبر بعض المتصوفة أن الحقيقة هي الأصل والشريعة فرع لها، وأن الأعمال الظاهرة لا فائدة منها إذا لم تقرن بمحاسبة دقيقة للنفس، وأخلاق فاضلة كالصلاة، التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

ويؤكد الشيخ العلاوي على أنه لا يمكن أن تقوم حقيقة بدون شريعة، وأن أي شروع في سلوك الطريق، لابد أن يسبقه تفقه في الدين، وتطبيق لأحكام الشرع، يقول في ذلك نقلا عن أبي إسحاق الشاطبي:

"إن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة، مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها".

ولعلنا لا نستطيع حصر النصوص التي يوردها الفقهاء والعلماء للتدليل على أن هناك تكاملا وتجانسا بين هذه الأركان، وأن سقوط أحدها سيؤدّي حتما إلى اختلال مذهب صاحبها، من ذلك مثلا قولهم : من تحقق ولم يتشرّع فقد تزندق، ومن تشّرع ولم يتحقق، فقد تفسّق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق، ويؤكد الشيخ البوزيدي، أن الحقيقة عبارة عن جسد والشريعة روحها، ولا يمكن أن يكون الجسد بغير أعضاء، وقد أكد الشيخ العلاوي هذا المبدأ الأساسي، فكان يحض مريديه على التمسك بآداب الشرع عملا بقول أبي مدين شعيب "من ضيع الفرائض فقد ضيع نفسه"

خامسا: الذكر والفناء ونهاية المعرفة عند السالك:

إن الذكر كالغذاء لتنمية الروح، وهو ثمرة المجاهدة والمواظبة، والطريق لوصول المريد إلى كشف حجاب الحس والتجلي بعد التخلي[5].

وقد أجمع المتصوفة على أن الذكر هو عمود الطريق، لا تستقيم إلا به، وهم متفقون في المبدأ، مختلفون في الطريقة التي يتم بها هذا الذكر، والهدف الأساسي من ذلك كله، هو إلغاء الأنا والذات، وسبر أغوار النفس، عن طريق إلغاء الفكر التحليلي الذي لا يمكن أن يوصل المتصوف إلى معانقة الوجود المطلق.

والشرط الأساسي الذي ينبغي أن يصاحب الذكر هو مداومة الحضور، أي حضور الله المستمر في قلب الذاكر.

ويفضل الشيخ العلاوي الذكر بالاسم المفرد، وقد أفرد لذلك كتابا خاصا يدافع فيه عن مشروعية الذكر بالاسم المفرد، وينصح المريد بالمداومة عليه، حتى يتعلق أثر الاسم المذكور بالنفس، والشيخ متأثر في ذلك بالإمام الغزالي الذي يبين كيفية الذكر بالاسم المفرد بقوله: [6] ..." ينبغي أن يكون حظ العبد منه ... التألـه (أي الاسم المفرد) ونعنى به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى، لا يرى غيره ولا يلتفت لسواه. كما ينقل عن الغزالي في مشكاة الأنوار:

"... مادمت ملوثا بما سوى الله فلا بد لك من نفي لا إله، وإذا غبت عن الكل في مشاهدة صاحب الكل، استرحت من نفي لا إله، ووصلت إلى الإثبات "... قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون" ثم يضيف: متى تتخلص من ذكر مالم يكن، وتشتغل بذكر من لم يزل: فتقول الله فتستريح مما سواه..".

وإذا حصل للمريد الفناء والاستغراق في هذا الاسم المفرد[7]، يخرج به عن نفسه وعن دائرة حسه، "ولم يبق له إلا الاسم ممتزجا بدمه ولحمه، فإذا قام به، وإذا تكلم فيه" ثم بعد ذلك يغيب هذا الاسم ويتلاشى رسمه، وشكله، ليحل في قلب الذاكر المسمى، ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن، يقول الشيخ: "لأن الاسم عند القوم هو عين المسمى، ولهذا لما حصل الاستغراق لهذا القائل في الاسم حتى غابت أوصافه في أوصاف ربه واضمحلت مساويه في محامد ربه".

وحينئذ يصل المريد إلى حالة من السكر أمام الحضرة الإلهية، ويخشى على المريد التلف، إذا لم ترسخ قدمه في البقاء أمام هول المشاهدة، فيغلب عليه الشقاء لعدم تمكنه من المقام، فيكون رهينة القبض بعد البسط، وقد يتلفظ بألفاظ يوحي ظاهرها بالخروج عن الملة، وهو ما يصطلح عليه في علوم القوم، بالشطح، ويحمل الشيخ كلام هؤلاء المتصوفة الذين غابوا عن الحس، على القصد الجميل، ويجد لهم الأعذار، في غياب العقل والحس، لأنه بعد رجوع العقل يصبح العبد عبدا والرب ربّا، والخالق بائن عن المخلوقات ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، يقول الشيخ: ".. وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذ بها أهل الشرع، فالإنصاف في شأن القوم، اعتقاد أنهم على غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدون، وصاحب الغيب غير مخاطب والمحبوب معذور فمن علم منهم فضله وإقتداءه حمل كلامه على القصد الجميل ...".

ومما يدل على أن تصوف الشيخ هو تصوف سني على الرغم من أنه يتعاطف مع القائلين بوحدة الوجود، ويورد نصا طويلا للشيخ محمد عبده يدل على وحدة الوجود، أقول على الرغم من الإلمام باتجاهات التصوف ومدارسه إلا أنه يمنح مفهوما للفناء، يختلف عن كثير من المتصوفة، ويرى في الفناء ليس فناء وجود ما سوى الله في الخارج بل فناؤه عن

شهودهم وحسهم .. وحقيقة غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه، لأنه يغيب بمعبوده عن عباده وبمذكوره عن ذكره وبموجوده عن وجوده..

وهنا نصل إلى نهاية المعرفة التي هي المصدر والمنتهى، وهي الذات الإلهية، حقيقة الحقائق، ونهاية المطلوب، وهنا يصل المحقق إلى غايته ويعود إلى أصله لأن المعرفة عندهم تذكر ورجوع بعد الضياع في عالم الغفلة، والأغيار، والكثرة، والتعدد، والوهم، لأن الموجودات وكل ما سوى الله وهم، تصنعه عقولنا القاصرة عن إدراك الذات. وذلك أن العباد في منظورهم تلقوا عهدا بالمعرفة في قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين) فهم قد اعترفوا بربوبية من خلقهم" ولكن الغفلة، وعالم الكثرة، هما سبب نسيان العباد للمعرفة الأولى التي هي موضوع العهد بين الله وبين عباده، فالغفلة والكثرة حجاب وزوالهما يعيد الإنسان إلى فطرته الأولى التي تلقى بها عهد الله بالمعرفة.."

واسمحوا لي بتوضيح جانب مهم وقع فيه نقاش بالأمس وهو طبيعة المعرفة وأنوعها واختلاف مفهومها بين الفلسفة والتصوف وعلم الكلام وذلك انطلاقا من طبيعة العلاقة بين الحق والخلق، أو بين الوجود لذاته وممكنات الوجود.

فأهل الظاهر من فقهاء ومحدثين، يرون أن الله مباين لمخلوقاته وعلماء الكلام يرون أن الله لا مباين ولا متصل، أما الفلاسفة فهم يرون أن الله لا داخل العالم ولا خارجه، والمتصوفة عموما يرون: إما أن الله متحد بمخلوقاته بمعنى الحلول فيها أو بمعنى أنه هو عينها، وليس هناك غيره جملة أو تفصيلا والمباينة كما يرى ذلك ابن خلدون في مقدمته لها معنيان الأولى المباينة في الحيز والجهة، ويقابله الاتصال، وهذه المباينة تشعر بالمكانية ونقع حينئذ في التجسيم والتشبيه، وأما المعنى الثاني للمباينة فهو المغايرة والمخالفة فيقال

حينئذ: الباري مباين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته، ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط[8].

وهذه المباينة كما يرى ابن خلدون هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف، وعلماء الشرائع والمتكلمين ومتصوفة السنة.

ويرى الشيخ العلاوي أن وجود الله وجودا مطلقا وأنه هو نفس الذات ، وهذا الوجود المطلق يتصف بالغنى التام عن سائر الموجود، بما في ذلك الصفات لأن الذات الالهية قائمة بذاتها لا تفتقر لغيرها ، وفي معرفة تلك الذات الغنى التام للعارف عن معرفة لقول أبي مدين " من لم تغنه معرفة الله فذلك هو الشقي "[9].

ويتدرج المريد للوصول إلى المعرفة القصوى عبر الأسماء والأفعال والصفات عن طريق توحيدها وهم في ذلك على درجات فمنهم المبتدئون وهم الذين يرون لا فاعل إلا الله فيتحققون بمعنى الوحدانية في الأفعال، وهذا ما يسمونه بتوحيد الأفعال، ومنهم من يتحقق بالوحدانية في الصفات فيقع في روع المتصوف إن لا سميع ولا بصير ولا متكلم ولا قادر ولا موجود ولا عالم إلا الله وهذا هو مقام القرب " الحديث القدسي"[10]

ومنهم الطبقة الثالثة وهم من تحققوا بحقائق الوحدانية في الذات فحجبوا عما سوى ذلك من المكونات يقول الشيخ :" ومن عرف الذات لم ير سواها في سائر الذوات وما احتجبت الذات إلا بالذات، ولو فتشت ما في الوجود لن تجد زائدا على وحدانية إلاله في الذات والصفات والافعال ... لأن الاشياء من ذواتها العدم "[11]

قائمة المصادر

1 – ذكريات الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي
تأليف الدكتور مارسيل كاري الطبعة الثالثة ص10 – ص24 مستغانم 1987
2 – الدرة البهية في أوراد وسند الطريقة العلاوية
جمعه الشيخ عدة بن تونس الطبعة الرابعة 1987 ص 27 – 28 ومايليها.
3 – الروضة السنية في المآثر العلاوية تأليف الشيخ عدة بن تونس الطبعة العلاوية بمستغانم1984 ص 43 .
4 – رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف تأليف الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي الطبعة الثالثة مستغانم 1986 .
5 – وقاية الذاكرين من غواية الغافلين تأليف الشيخ عدة بن تونس الطبعة الثالثة 1991 – ص10 ومايليها – المطبعة العلاوية بمستغانم .
6– مجالس التذكير في تهذيب الروح وتربية الضمير تأليف الشيخ عدة بن تونس الطبعة الثانية 1995 المطبعة العلاوية .
7 – أعذب المناهل في الاجوبة والرسائل تأليف الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي– الطبعة الثانية 1993 ص78–79 .
8 – مقدمة ابن خلدون باب التصوف ، تأليف عبد الرحمن بن خلدون .
9 – المواد الغيثية الناشئة عن الحكم العطائية تأليف أحمد بن مصطفى العلاوي ج الثاني الطبعة الاولى ص 23 مستغانم 1994 .
10– المصدر نفسه ص .23
11– المصدر نفسه ص 21 .